أحمد بهجت

الوقوع فى هوى الكعبة



للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقى بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

فى الأيام القديمة الطيبة، كان أجدادنا يقاسون أهوالا فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة..

انهم يركبون الدواب إلى شاطىء البحر. ثم يركبون البحر إلى شاطىء الصحراء. ثم يركبون الجمال ويقاسون من اهتزازها المستمر، وهم ينامون أياما فى الطريق، ويتعرضون للحر والعطش والبرد والجوع والخوف. لكنهم يواجهون هذه المشاق باحساس عميق بأن الله يكفّر عن الإنسان خطاياه إذا تعذب وقاسى وهو يشق طريقه إليه.. وكلما زاد تعب المؤمن زاد الله فى ثوابه.

ألغى التقدم العلمى استخدام الجمال والدواب. واختصرت الطائرات المسافة وكادت تفسد موضوع الثواب.

. . . .

لكننا سوف نجد طريقا آخر فلا تقلق.

. . . .

صحيح ان القرن العشرين يتميز بزوال المسافات بين الدول، لكن اجراءات السفر والجوازات والمصالح الحكومية والبنوك وتأشيرات الدخول وتأشيرات الخروج عوضت النقص فى الزمن، وأطالته كما كان، وزادت من ثواب المؤمن بما تقدمه له من متاعب جمة وعقبات كثيرة ومنغصات غفيرة.

الثواب باق كما هو، بل لعله يزيد، فلا تبتئس..

. . . .

انتهى الأمر وقررت بينك وبين نفسك أن تعتمر أو تحج.

ستتدرب هنا على الجرى بين الصفا والمروة تدريبا كافيا فلا تخف. أمامك أسبوع من السعى بين هذا المكتب وذاك، ومن توقيع أوراق هنا والتصديق عليها

هناك. فى البداية سوف تلتقى بقرعة أو يانصيب قد يرسو فيه عليك الحظ وقد يخطئك.. وفى النهاية ستمد أيديك للحقن الصحية والواقية.. انتهى التكفير عن نصف ذنوبك بانتهاء آخر الإجراءات..

....

لم تسأل نفسك لماذا تريد أن تسافر إلى العمرة. تختلف أسباب السفر ودوافعه باختلاف الناس. سنعثر على عديد من الأسباب بقدر عدد المسافرين.

ورد فى الأثر الشريف أن زمانا يجىء على الناس فيخرج أغنياؤهم للسياحة وفقراؤهم للتجارة، وعلماؤهم للسمعة، وقلة منهم هى التى تخرج وداخلها هذا الهوى الغامض نحو الكعبة.

إلى العمرة إذن فى محاولة لاكتشاف هذا اليقين الكامن وراء ما ترمز إليه حجارة الكعبة، وهذا الحنين الجارف إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

. . . . . .

تتشابه قوانين العبادة وقوانين الحب فى كثير من الطقوس الخارجية والمعانى الباطنية. يتشابهان مثلا فى سلسلة الأوامر والنواهى التى تنفر من الأسئلة وتطلب الطاعة فحسب، ولا تخضع لبداهة المنطق المعتاد للأشياء. أنت تصلى الظهر أربع ركعات والمغرب ثلاث ركعات. لا تعرف السر فى عدد الركعات ولماذا يزيد هنا وينقص هناك. أيضا لا تسأل عن السر فى ذلك. وكذلك الحب يبدأ بسلسلة من الأوامر لا تعرف حكمتها.. وعلى قدر طاعتك نعرف مقدار حبك.

أول أمر يصدر إليك قبل التوجه إلى العمرة أن تنوى العمرة.. **(اللهم انى نويت العمرة فيسرها لى وتقبلها منى)** بعد ذلك عليك أن ترتدى ثياب الإحرام.

إزاران يلف المرء أحدهما حول وسطه والثانى حول كتفه اليسرى.. وأى بشكيرين جديدين لونهما أبيض يصلحان لذلك. لا يرتدى المحرم شيئا مخيطا..

يحس المرء وهو يسير بهذا الرداء أنه عار للمرة الأولى فى حياته. عرى من نوع جديد وغريب وغير مألوف. كأنك عار من الداخل. كأن روحك عارية. يولد المرء عاريا ويستقبل الحياة عاريا ثم يدركه الناس ويلفونه بالأغطية ويعلمونه ارتداء الملابس وارتداء الأقنعة واخفاء الحقائق ويفسدون فطرته..

لماذا يأمرنا الله أن نرتدى ثيابا ليس فيها خيط واحد يشبك رداء برداء. ان هذايشبه ما يرتديه الأطفال حين يولدون. هل تعنى العمرة ارتداد المرء إلى الطفولة.. إلى الجزء البرىء الذى لم يخدش بعد فى الطفولة.. ربما يكون ذلك هو المعنى وربما يكون هناك سبب آخر لتبديل الثياب.. سبب يكمن فى الحب. نحن نخلع

نفوسنا القديمة حين نحب ونرتدى ثوب الصفاء ذاته.

وقبل هبوط آدم من الجنة إلى الأرض كان يعيش عاريا دون أن يدرك أو ينتبه إلى عريه. ثم ارتكب خطيئته وأكل من الشجرة المحرمة. ساعتها أدرك انه عار وبدأ يحس بالخجل لذلك **(وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة)**.. وبدآ يرتديان الملابس للمرة الأولى فى حياتهما.. كانت ملابس بغير خيط واحد. لم يكن هناك من يخيط الملابس.

هل تعنى ملابس الإحرام العودة إلى هذا الزمن القديم الطيب الذى كانت الخطيئة فيه واحدة.. والتوبة مهيأة.. ورحمة الله تنتظر بالعفو والسماح؟.

لا أعرف ، كل ما أعرفه أن تبديل الثياب يعنى فى القصص الدينى تبديل الشخصية، والناس لا ترتدى ثيابا غير مخيطة إلا وهى تولد، أو وهى تموت، أو وهى تحج أو تعتمر.. وحين كانت فى الجنة قبل

الهبوط إلى الأرض، هل يقصد الله تعالى بهذه الملابس أن يعلم المسلمين درسا فى المساواة.. لست أعرف السر فى ملابس الإحرام كما أجهل السر فى كون ركعتى الفجر اثنتين والمغرب ثلاثا.. غير أننى لمعرفة سابقة بقوانين الهوى أدرك أن السؤال فى لحظات الحب قد يكون أحيانا سوء أدب.. والأفضل الطاعة.

ستخرج من القاهرة بنفسية غريبة.. سيخيل لك انك ذاهب فى رحلة حب، ربما لم تكن تصلى بانتظام، وربما يكون صومك تقليدا، غير انك تدرك فى نهاية الأمر ان الباب الذى يفتحه الله بينه وبين عباده هو الباب الوحيد الذى يستحق الالتفات، وهو الباب الوحيد الذى يتسم بالكرم فلا يوصد أمام الانسان مهما يرتكب من ذنوب.

وستحس بالفرق بين هذه الرحلة وأى رحلة أخرى قمت

بها قبل ذلك.. تحس وأنت تسافر الى أمريكا أو أوروبا مثلا بالفرح أو الخوف أو القلق.

تختلف الرحلة إلى الكعبة عن أى رحلة أخرى. انك هنا لا تحس بغير شعور واحد. الأمان المطلق.. والهوى. انت فى الطريق إلى رحلة حب. وهو حب مضبب.. فأنت تعرف انك لن تلتقى بوجه معين.. ثمة دائرة من التجريد.. دائرة لا تمتلىء بشىء، وتمتلىء فى نفس الوقت بآلاف المعانى الغامضة الساحرة التى تجعلك تقف على مشارف البكاء.

وجدت ما أبحث عنه الآن فقط، هل تعرف بم تحس وأنت ذاهب إلى الكعبة.

انك تحس انك ذاهب، لأن أحدا قد دعاك، وينبغى أن تذهب.

هكذا ببساطة.

لا تذكر شكل وجه الداعى.. لا تعى أذناك نبرة

صوته.. غير انك واثق انه دعاك وينبغى أن تذهب.

ان خليل الله.. وأبا الأنبياء.. ابراهيم عليه السلام، وقف يوما يدعو جوار الكعبة، فقال: (**ربنا واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم**).. استخدم النبى تعبيرا مشتقا من الهوى.. والهوى فى اللغة انحدار لا يقاوم نحو شىء.. ولو بحثت فى عيون العجائز والشبان وهم يتجهون للكعبة، فلن تجد تفسيرا غير دعوة ابراهيم عليه السلام.. وإلا فكيف تفسر بكاء هذه الأم العجوز التى تحلم أن تزور الكعبة قبل أن تموت، وكيف تفسر فى نفس الوقت قلق هذا الشاب ورغبته فى زيارة الكعبة قبل أن يكبر..

ان دموع المحبين وقلقهم علامة قديمة من علامات الحب.. وهوى الأفئدة لا يخضع لمنطق البشر أو حسابه. وكذلك يذهب الناس إلى الكعبة، تلبية لدعوة أبيهم ابراهيم، التى استجابها الله سبحانه، وهى فكرة

فى عقله، وقبل أن تولد على شفتيه كدعاء.

يعرف المسلمون ان هذه الدعوة غيب.. لم يسمعها أحد منا. لكن الله حدثنا عنها، وهذا بالنسبة لنا يقين أفضل من مجرد السماع ومعاينة الحواس.. فالحواس قد تكذب.. وصدق الله العظيم.

ليس هناك تفسيرا لنزوع الملايين نحو الكعبة غير هذه الدعوة.. هى الأصل فى الهوى الغامض الذى يملأ القلوب حنينا لزيارة مكان لم نره من قبل. والأصل فى الحنين أن يجىء بعد أن ترى الشىء وتعاينه وتميل إليه وتقع فى حبه ثم يبدأ الحنين نحوه.. إما ان تحن لشىء لم تره بعد.. أما أن تعشق وجها بلا ملامح.. أما أن تقع فى هوى مكان لم تزره بعد. فأى غرابة؟!!

. . . .

الطائرة تتهيأ للإقلاع. المطار ساكن، ،الناس تتجه بملابسها البيضاء نحو الطائرة.. بدأت التلبية فى

السيارات التى تتجه نحو الطائرة..

(لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك).

ستحس فى البداية بشىء من الدهشة والخجل وأنت ترفع صوتك هكذا وتلبى كأنك تسير وسط مظاهرة صاخبة.. غير انك تنسى كل شىء وتنهمك فى التلبية.

تساءلت بينى وبين نفسى.. فى اللحظات التى كنت أفلت فيها من تأثير هذه الجماعة: لماذا نزعق هكذا كأننا فى مظاهرة؟!!.. ثم أدركت أن المطلوب أن يبدو هذا الوفد فى شكل مظاهرة، تعلن بصوتها العالى عن احترامها لشعائر الله وتوجهها إلى زيارة بيته.

ان معظم عبادات الإسلام تتم فى السر.. تتم بين المرء وربه.. التسبيح والصوم والصدقة عبادات يكره

الإعلان فيها.. غير أن هناك عبادات ينبغى الإعلان عنها بتبديل الثياب ورفع الصوت بالتلبية.

أليس الشأن كذلك فى الحب، يبدأ أسرارا مهموسة، ثم يجىء الوقت الذى يضيع فيه لو لم نعلن عنه اعلانا يعرفه البعيد والقريب. ووسط الجزء اليابس من سطح الأرض. تعيش مع الإسلام آلاف العقائد والمذاهب والنظريات التى تعلن عن نفسها وتشرع سيوفها وألسنتها وكتبها بالدعوة لنفسها.. ومن حق الإسلام أن يظهر بعض جوانبه فى الأرض كى يكون هناك شىء أبيض وسط هذا السواد العظيم.

عاد سيف الإسلام إلى غمده من زمان بعيد، فأى بأس أن يعلن أتباعه عن حبهم الشفوى بهذه التلبية؟!

ستستمر التلبية طوال تحليق الطائرة.. لعلك ركبت الطائرة قبل ذلك عشرات المرات، ولعلك اعتدت أن

تسافر بها دائما.. غير ان احساسك بها يختلف هذه المرة.. يجرى ذهنك لهذا الطائر المعدنى الذى يطير بك على ارتفاع ٣٥ ألف قدم.. وتحس أنك تولد من جديد وأنت تشهد كل عمليات الميلاد التى تقع تحت سمعك وبصرك.

تحت الطائرة مباشرة، يمتد بساط من السحب الذى يجرى عكس اتجاه الطائرة.. كانت هذه السحب منذ أسبوعين اثنين أمواجا فى البحر المالح. ثم وقعت فى هوى الشمس فصعدت اليها.. تخلت عن الملح وولدت فى صورة جديدة بعد أن أحبت، وتظل هذه الأبخرة مستسلمة لنزوعها القوى للشمس.. تظل تصعد فى الجو، حتى تلتقى ببرودة الهواء فتولد السحب، ولا تكاد السحب تولد وتتجمع معا لتستدفىء، حتى تخضع لناموس الرياح فتتحرك. تتحرك إلى أين؟..
لا أحد يدرى.

خالقها وحده هو الذى يعلم.. ربما عادت إلى البحر تحكى عما شاهدته فى السماء، وربما اتجهت لأرض ميتة لتعيد إليها الحياة والخضرة.

ستنظر لهذه الآيات وتحس بالضآلة.. وتصل إليك رسالة الرياح والسحب المسخرة بين الأرض والسماء.. وتصل إليك رسالة القدرة المعجزة، فتحس انك معلق بيد الجلال الخالق.. ويزيد حماسك للتلبية، وتلاحظ ان الطائرة تنقسم لمجموعات مختلفة، بعض الملبين يسبق بعضا، وليس هناك انسجام كلى بينهم، وتتخيل لو كانت الطائرة كلها تلبى معا.. أى روعة أن يحدث ذلك، غير ان ما تراه من انقسام الناس إلى مجموعات وشلل. وتشويش بعضهم على بعض يعكس لك صورة لحال الأمة المسلمة اليوم..!!

. . . .

يصافح وجهك نسيم جدة..

قديما كانت جدة ميناء يستقبل الحجاج والمعتمرين أياما كاملة.. كانوا يمكثون فيها لتهيئة مؤونة السفر والراحة من ركوب البحر والدواب.. الأفضل ألا يبيت المرء فى جدة.. انما يهرع - بنزوع العاشقين وانعدام صبرهم وغلبة شوقهم - إلى مكة.

والأصل فى السفر ، أن يستحم الإنسان حين يصل لهدفه كى يتخلص من تراب السفر.. غير أن هذا السفر يختلف.. يمتنع على المحرم أن يستحم أو يتعطر أو يقلم أظافره أو يتزين.. انما يذهب كما هو بتراب السفر إلى مكة.

وكلما أسرع بذهابه، كان هذا أفضل.. الطريق بين جدة ومكة، ثمانون كيلومترا.

جلست بجوار السائق مستمتعا بالدفء. معنا فى السيارة اثنان من الشباب السعودى.. بعد لحظات بدأ أحدهما يسألنى: هل جئت فى طائرة المعتمرين؟.. هل

أنت مصرى؟.. من أى مكان فى مصر؟.. هل تعرف شارع كذا؟.. كنت أجاوب باقتضاب وخشونة، محاولا صده كى أخلو قليلا لنفسى.. غير أننى لم أنجح.. ان هذا الشاب درس فى مصر وعاش فيها ثمانية أعوام، وهو سعيد لأن رائحة مصر وناسها الطيبين الذين أكرموه تهب عليه.. وهو يستطيع أن يميز المصريين من آلاف الشعوب الأخرى، وهو يعتقد انه إذا كان الله قد أمر المسلمين أن يتجهوا إلى الكعبة بالصلاة فعلى المسلمين أن يتجهوا إلى مصر بالحب فيما عدا ذلك. بدأ حديثه يروق لى فالتَفَتُّ إليه.. كان كلامه مشحونا بالعاطفة وهو يتحدث.. وكان يبذل جهدا واضحا ليتكلم كالمصريين.. سكت قليلا ثم عاد يقول لى: ان نصف الدماء التى بنت الكعبة دماء مصرية... ان السيدة هاجر أم اسماعيل عليه السلام مصرية، أهديت لزوجة أبى الأنبياء ثم تزوجها وأنجب منها

اسماعيل.. كان اسماعيل عليه السلام مصريا من جهة الأم.. وأنتم المصريون مشهورون بالبناء من قديم الزمان.. حضارتكم هوايتها البناء والتشييد.

استمعت إلى حديثه وأحسست أنني أريد أن أبكي.. ان احساسك بإعزاز الناس لمصر شيء يهز الانسان ويفجر داخله ينابيع الحب والشفقة في نفس الوقت.. في اللحظات التي كان يصمت فيها كنت أتأمل الطريق والصحراء التي تمتد على جانبيه.. أخيرا ظهرت لافتة تقول: (لا يسمح للأجانب بدخول هذه المنطقة.. الصيد محرم هنا)..

أخيرا.. هذه هي الأرض المقدسة.. انحنيت على نفسي داخل السيارة، وانفصلت تماما عن كل من فيها، ودهشت لما أحسه.. الآن أفهم السر في بكاء أمي وهي تتحدث عن رغبتها في الحج.. ان شيئا آسرا وغير مفهوم يستولي على مشاعرك حين تهل عليك رائحة

الكعبة.. وتحس فى فمك بمذاق السلام الذى طالما سمعت عنه دون أن تراه.. ومع السلام يخفق قلبك.. وكأنك فى الطريق لتلتقى بهذا الحب القديم الذى ضاعت نفسك حين نسيته، وعادت اليك وأنت تشد الرحال اليه.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا».. يذكرك هذا الحديث الشريف بأسر المسجد الأقصى وأحزانه.. ضع أحزانك مؤقتا فى قلبك وتهيأ لدخول مكة..

قل فى قلبك: «اللهم زد مكة تشريفا وتعظيما وتكريما واغفر لعبدك الخاطىء».

أخيرا تدخل البلدة التى يزيدها الله تشريفا وتعظيما. لما تضمه من بيته الحرام والمفروض أن تهرع إلى المسجد الحرام وتدخل من باب السلام، ثم تهرع إلى الكعبة وأنت تلبى بصوت عال. ثم تغوص فى

أمواج الطائفين حولها وتصير ذرة بيضاء وسط ذرات بيضاء تدور وتدور وتدور.

للمرة الأولى تدور فى اتجاه الطاعة، وكم درت يا صديقى آلاف المرات عكس دوران الكون فى اتجاه المعصية..

* * *

لا فنادق خالية فى مكة..

ولا سرير واحد، ولا فندق واحد..

أين أبيت إذن؟.. أشار الناس إلى المسجد الحرام.. لماذا لا تنام هنا فى المسجد.. أليس هذا ممنوعا؟.. هذا بيت الله، وهو يتسع لكل الناس.. لماذا لا تعتكف فيه ما بقى من شهر رمضان؟.. تصلى أمام الكعبة وتنام فى أى موضع يعجبك؟.. أين أترك حقيبتى.. أتركها فى أى بقعة ولا تخف.. تذكرت قوله تعالى:

(ومن دخله كان آمنا) .. تركت الحقيبة جوار أحد أعمدة المسجد وألقيت بصرى للمرة الأولى بتأن وامعان علي الكعبة.

ليس صحيحا ان الحب ينشأ من النظرة الأولى.. ربما كان أقرب إلى الصحة أن نتحدث عن ميلاد الدهشة من النظرة الأولى.. وأخطر أنواع الهوى نوع ينسكب فى نفسك قطرة بعد قطرة.. دون أن تحس أو تدرى أو تلاحظ.. ثم تنتبه ذات يوم أو ساعة، فإذا بك واقع فى الهوى.. ومن هذا النوع هوى الكعبة.

كنت أتصور الكعبة أضخم مما هى عليه فى الواقع.. كنت أتصور اننى سأطير بنظراتى حولها أياما.. وأصعد ببصرى فيها ساعات حتى أصل إلى قمتها.. غير أن مجرد النظر إليها ينقلها فى لمحة واحدة ويضعها داخل انسان العين.. أحرجت مشاعرى هذه السهولة.. وأنا الذى تصورت أن مجرد رؤيتها يحتاج

إلى أيام..

رحت أتأمل الكعبة فى صمت.. لم أكن ألبى ساعتها.. نسيت أننى يجب أن ألبى، وظللت ساكنا أنظر.. **(ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين)**.. هذا أول بيت وضع للناس إذن.. أقدم بيت وأول بيت..

. . . .

. . . .

فى البداية. لم تكن هناك كعبة. ولا مسجد ولا شجرة ولا ثمرة، ولا قطرة ماء.. المكان واد غير ذى زرع.. صحراء قاحلة تماما..

وصل ابراهيم عليه السلام مع زوجته هاجر وابنهما اسماعيل. كان الطفل رضيعا لم يزل.. ترك النبى الكريم زوجته عند مكان هو الآن أعلى المسجد.. وفى البخارى عن ابن عباس: "جاء بها ابراهيم وبابنها

اسماعيل وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت، وليس بمكة يومئذ أحد. وليس بها ماء وضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفل ابراهيم منطلقا، فتبعته أم اسماعيل، فقالت: يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء.. فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها.

فقالت له: الله أمرك بهذا ؟!

قال : نعم.

قالت: إذن لا يضيعنا.

ثم رجعت.. فانطلق ابراهيم، حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت.. ثم دعا ربه.

(ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع، عند بيتك المحرم.. ربنا ليقيموا

الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون).

بعدها، انصرف ابراهيم وترك زوجته وابنه وسط الخلاء الموحش.

لم نزل نتأمل فى الكعبة.. ما أغرب دعوات الأنبياء.. خارج المسجد الحرام تلتقى بكل فواكه الأرض وثمارها.. تجيء إلى مكة المكرمة فى أوانها، وتجىء فى غير أوانها!! وكل شىء هنا ميسر وحاضر.

وكل ما تراه اليوم من شعائر وهوى وطواف ومتعة روحية.. كل ما تراه وتحسه، ولد من شفاه أبى الأنبياء ابراهيم.. كان دعوة واستجيبت.. نتركك تدعو الله، ونطوف نحن بالكعبة.

اللهم انى أريد طواف بيتك الحرام، فيسره لى، وتقبله منى.. هى سبعة أشواط طواف

العمرة.. وستبدأ من الحجر الأسود وترفع يديك وتقول: **بسم الله، والله أكبر، ولله الحمد..** تطوف الآن حول الكعبة.. ومن قبلك طاف الملايين حول الكعبة.. ومن قبلهم طاف ابراهيم واسماعيل حولها وهما يبنيانها.. ومن قبلهما كان معروفا ان هذا مكان بيت الله الحرام.. كان معروفا قبل أن يبنى.. كان هذا مكانه المقدر فى علم الله.. يقول تعالى: **(وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا)**.. أعتقد بعض العلماء أن البيت كان مبنيا قبل ابراهيم الخليل عليه السلام.. وتمسكوا فى ذلك بقوله تعالى: **(مكان البيت)** ثم أوضح ابن كثير ان المقصود مكانه المعروف لله عز وجل.

تطوف الآن حول الكعبة..

قبل أن تبنى الكعبة، كان هناك بيت اسماعيل وزوجته الأولى.. جاء شيخ مهيب سمح الطلعة

يزورهما، فوجد الزوجة ولم يجد اسماعيل.. سأل المرأة عنه، فقالت خرج يبتغى لنا.. سألها عن عيشهما وحالهما، فقالت نحن فى ضيق وشدة.. وشكت اليه.. قال الشيخ الجليل: إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، وقولى له يغير عتبة بابه.

جاء اسماعيل. فكأنه آنس شيئا، فسأل امرأته: هل زارنا أحد، فحدثته بقصة الشيخ.. قال هذا أبى.. ثم أدرك معنى قوله (يغير عتبة بابه) بأنه يريد به تطليق امرأته.. وسرح اسماعيل زوجته.

تسألنى لأى حكمة..

كان الله يهيئه لعمل عظيم قادم..

وكان المفروض أن تكون معه زوجة لا تشكو من شيء.. زوجة تعين على العمل وتقف بجواره.. وتزوج اسماعيل زوجته الثانية، فزارها ابراهيم، وتكرر ما وقع فى القصة الأولى بشكل عكسى.. سألها الشيخ عن

حالهما، فقالت بخير وسعة وأثنت على الله.. وأمرها ابراهيم أن تبلغ اسماعيل أن يثبت عتبة بابه..

وفهم اسماعيل الرسالة، وعاش مع زوجته ينتظر مجيء أبيه.. ثم جاء الأب يوما يقول:

ـ يا اسماعيل ، ان الله أمرني يوما بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك به ربك.

قال: وتعينني ؟

قال: وأعينك.

قال: فإن الله أمرني أن أبني هنا بيتا.

وأشار ابراهيم إلى أكمة مرتفعة على ما حولها..

أنت تطوف الآن بأقدامك فوق نفس المكان الذى طاف فيه نبيان من أنبياء الله عز وجل.. نفس الطريق الذى قطعته أقدامهما ، تسير فوقه بأقدامك..

تعب النبيان من أجلك. وسط هجير قاس لا يرحم.. ورفعا القواعد من البيت وهما يدعوان الله: (ربنا

تقبل منا، انك أنت السميع العليم).. هل فهمت الآن حكمة ترك اسماعيل وأمه فى الوادى المجدب.. هل أدركت انك جئت فى رحلة حب.. انك تبدأ طوافك دائما من الحجر الأسود.

من أشد أسرار الكعبة إثارة للخيال. هذا الحجر الأسود.. وهم ينادونه بالحجر الأسعد.. تشريفا له وتكريما. ورغم انه حجر لا يضر ولا ينفع. إلا انه يرمز لشىء عميق فى الوجدان الإسلامى.. ومن طقوس العمرة، البدء به فى الطواف. وتحيته وتقبيله.. وقد قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وقال عمربن الخطاب وهو يقبله: "والله انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك".

حول هذا الحجر زحام رهيب.. ثمة صراع لا ينقطع من أجل تقبيله.. ويتنازع المسلمون حوله ويتجاذبون

وهم يحاولون الوصول اليه.. ولا بد أن تستخدم عضلاتك لتصل إليه. ولن تقبله غير قبلة واحدة، لأن آلاف الأيدى ستمتد وتنتزعك من مكانك وتحاول هى تقبيله..

ربما تقول فى نفسك: سأقبله بعد أن يهدأ عليه الزحام.. بعد الفجر أو فى العصر أو فى المغرب أو فى العشاء أو حين ينام الناس.. وينام الناس والزحام حوله لا يفتر، والصراع حوله كما هو..

وكلما تصورت انت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبله بشفتيه الكريمتين زاد حنينك لتقبيله.. غير أنك تقبله، وفى قراره نفسك تعاليم الرسول، بأن هذا حجر.. وانه لا يضر ولا ينفع.. هو مجرد رمز.. مثلما نحتفظ بخصلة شعر لمن نحب ونقبلها.. لا نستبدله بها ولا نحبها من دونه.. هل صدقت الآن أنك فى رحلة حب.. أليست القُبلة تتويجا للحب.. ها أنت تقبل

آلاف المعانى التى شهدها هذا الحجر الكريم الأسود.

لقد شاهد هدا الحجر ملايين المصلين الطائفين حول الكعبة. وصكت ذراته ذبذبات صوت آلاف المبتهلين وملايين الداعين.. حدث هذا من زمن ابراهيم عليه الصلاة والسلام، إلى زمن محمد.. عليه الصلاة والسلام.. كلهم كانوا يبدأون به وهم يكبرون، وكلهم كانوا ينتهون به وهم يودعون.

هو علامة تقول عندها: **(الله أكبر ولله الحمد)**.. وحين تقولها تصغر فى نفسك كل معانى القوة فى الأرض. وتتضع كل سلطات الحياة، ولا يبقى فى وجدانك غير الجبار العظيم المهيمن. رحيم الدنيا ورحمن الآخرة.

قال ابن كثير عن الحجر الأسود.. لما بلغ ابراهيم واسماعيل القواعد وبنيا الركن.. قال ابراهيم لإسماعيل: يا بنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه ها

هنا.. وكان اسماعيل قد تعب، فانطلق مجهدا يبحث، فلما عاد وجد الحجر الأسود عند أبيه ابراهيم.. قال يا أبت من جاءك بهذا.. قال جاء به من لا يدركه التعب مثلك.. جاء به جبريل.. وعادا إلى البناء وهما يدعوان الله: **(ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم)..**

لا نعرف ماذا يقول المنكرون للمعجزات اليوم فى هذه القصة.. غير ان هذا لا يهم.. ان عدد الذين يتدافعون حوله لتقبيله. طوال الأربع والعشرين ساعة، هو فى ذاته معجزة تحتاج إلى تفسير ملح أكثر من معجزة احضاره. وعلى أى حال فإن خير جبريل عليه السلام علينا قديم، ولا نعرف كيف نوفيه حقه من الشكر.. هو الذى نزل بالقرآن على قلب نبينا. وهو الذى أكرم ابراهيم واسماعيل وقدم اليهما الحجر الأسود.. اللهم بلغ ملكك الكريم عجزنا عن

شكره.

. . . . . .

انتهى طوافك حول الكعبة.. ستخرج من الدوامة الداعية المستغفرة الباكية التى تطوف حولها وتقف لحظات.. أيدهشك ان الطواف لم يزل، رغم خروجك منه.. من تكون أنت يا سيدى لتؤثر فى بحر الجباه الخاشعة.. أنت لا شىء.. الأفضل لك أن تتضاءل فى نفسك، وأن تصغر.. قل لنفسك انك أقل واحد جاء يطوف.. قل لنفسك انك أكثر الذين جاءوا ذنوبا..

تضاءل فى نفسك أكثر وأكثر.. فما تقوله حق.. وأنت تعرف أكثر من غيرك انه حق.. وأنت تقف الآن أمام رب الكعبة.

ان لونا غريبا، وغير مألوف، من ألوان الخشوع يملؤك.. خشوع غير انسانى.. ليس هذا احساسك تجاه من تخاف فى الأرض.. ليس هذا أيضا احساسك تجاه

من تحبهم فى الأرض.. ثمة شعور جديد تماما .. احساس آخر بأنك تقف فى بيت الله الحرام.. تقف عاريا من الداخل والخارج.. تذوب حجارة الكعبة فى دموعك.. ولا يبقى غير وجه ربك ذى الجلال والاكرام.. هو الذى يراك من لحظة التكليف إلى ساعة وقوفك أمامه.. وهو يعرف كل ما فعلت.. وهو يطلع على هواجس الضمير وهفوات القلب وآثام العقل وذنوبه.

أنت أمام من يرى كل شىء.. وتفكر أن تهرع إلى الكعبة وتهشم رأسك فى حجارتها وتستريح.. أو تفكر أن تستدير عائدا وتهرب من البيت الحرام وتغض النظر عن الموضوع كله.. غير أنك لا تفعل من هذا شيئا.. وانما تظل واقفا فى مكانك.. مسمرا بالخوف، محكوما بالأمل، راجيا عفو خالقك الأعز الأكرم.

إذا بلغ احساسك بذنوبك ذروة السماء.. هنالك فقط سنتركك تذكر قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «أى

عبد يقف فى بيت الله الحرام فيتصور أن ذنوبه أعظم من رحمة الله، فقد آثم فى حق ربه. ولم يقدر رحمته حق قدرها ».

وتنبت فى صحراء روحك زهرة واحدة..

زهرة واحدة فى الصحراء.. غير انها تكفى لتسحر صحراء روحك كلها بالخضرة. هل يعيد التاريخ نفسه، حتى فى نفوس البشر.. لا أحد يعرف. أين تركنا أم اسماعيل حين جاءت.. ألم تكن هناك وحدها فى الوادى القاحل المجدب.. نعم كيف احتملت ما احتمله إذن؟.. أكانت داخل صحراء روحها هى الأخرى زهرة وحيدة؟.. أنت الآن فى الطريق إلى تأدية الجزء الثانى من شعائر العمرة.. وهو السعى بين الصفا والمروة.. أنت الآن فى قصة هاجر المصرية.. سيدتنا هاجر، أم سيدنا اسماعيل عليه السلام.

لا أحد يعرف ـ غير الله ـ عمق الأحاسيس المهلكة التى كانت تفتت قلب هاجر وهى تهرول فى الخلاء

الموحش، بحثا عن المياه، بعد أن تركها زوجها ابراهيم وحيدة مع ابنها فى الصحراء. انها مصرية ولدت جوار النيل. واعتادت عيناها مرأى الخضرة، وها هو الماء ينفد منها فى الصحراء. ونهضت تبحث عن ماء. انطلقت تجرى بحثا عنه.. أوصلتها أقدامها المجهدة إلى الصفا، وكان أقرب جبل اليها. وخيل اليها أن صراخ الطفل قد سكت فعادت تهبط من الصفا تهرول حتى جاوزت الوادى ووصلت إلى المروة. وقفت عليها ونظرت فلم تر أحدا. وعادت تسعى إلى الصفا سبع مرات وهى تجرى ذهابا وإيابا فى نفس الطريق. ألا يدهشك انها كانت تجرى ذهابا فى خط مستقيم. فعلت ذلك كى لا يضيع الطفل من نظرها. كانت أحيانا تهرول وأحيانا أخرى تتلفت وراءها لترى ابنها وتتسمع.. هل سكت عن البكاء أو هو مستمر فى بكائه.. وكان سكوته يفزعها أكثر من بكائه. ما دام يبكى فهو حى. لا يبكى غير الأحياء. سبع مرات يا

ربى وهى تسعى وتهرع بين الصفا والمروة.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فذلك سعى الناس بينهما). انت تسعى الآن وتدعو.. كانت هى تبكى وهى تسعى، حتى جفت دموعها، وتشقق جلدها. ويئس الطفل من الشراب واندلع صراخه الجريح..

وتذكرت ما قالته لإبراهيم: الله أمرك بهذا.

قال: نعم.

قالت: إذن لا يضيعنا.

حين يئس الطفل من الماء وسكت بكاؤه.. ابتعدت حتى لا تراه وهو يموت.. ورفعت صوتها بالبكاء.

هنالك ضرب الملك الكريم بجناحه الصخر، فانفجرت عين زمزم، وفار ماؤها البارد، وقال الملك: لا تخافوا الضيعة.. ها هنا بيت الله.. يبنيه هذا الغلام وأبوه.. والله لا يضيع أهله..

انتهى سعيك بين الصفا والمروة..

الآن تستطيع أن تتخفف من ملابس الإحرام.. يقف

أطفال صغار فى أيديهم المقصات.. سيقصون لك خصلة من شعرك، إيذانا بانتهاء الإحرام، واتمامك لشعائر الله..

تستطيع الآن أن تستريح فى الفندق، وتستحم وتتعطر، وترتدى ملابسك العادية.

بالنسبة لى، لم يكن لدى فندق.. كنت أنزل فى المسجد الحرام ذاته. قلت: أفك الإحرام بالتعطر، ثم جلست أمام الكعبة منهكا متعبا، ونمت وأنا جالس.. استيقظت قبل صلاة العصر.. الحياة فى بيت الله تمضى بك بغير أن تحس.. الوقت هنا له وجوده، بدليل الساعة التى تحملها فى يدك، غير انه مفقود تماما، لأنه يجرى كمن أصابه من الجنون مس!!

كل أوقات الصفاء هكذا.. كل أوقات السعادة والهوى تجرى من يدك وتترك لك هذا الإحساس المروع بفناء كل شىء على الأرض، وصيرورته إلى الهلاك.. اليوم أحس أن ما وقع كان حلما، ولولا هذه المجموعة

من الحصى الذى أحضرته من المسجد الحرام، لظننت أن الأمر كان حلما.. حلم تلتقى فيه بالله كل يوم خمس مرات وأنت تصلى..

هنا تسفر الصلاة عن عمقها البعيد العظيم.

هنا تتحول الصلاة إلى صلة بالله..

صلة هى لقاء وجد وحب.. حب يتجاوز أسوار الحب إلى العبادة..

كم تتغير مشاعرك وأنت تنظر للكعبة.. فى البداية تحس بالدهشة ثم يغرقك الاحساس بالضآلة.. ثم يفيض عليك صفاء وخشوع غريبان.. ثم يبدأ الهوى فى غزوك.. ويصبح النظر إلى الكعبة عبادة صامتة، وتروح تمسح بنظراتك كل جدران الكعبة وزواياها. دون أن تفهم السر فيما تفعل.. ومن المدهش، أن احساسا غريبا بالعطش يندلع فى نفسك كلما نظرت.. وأعظم حب فى الدنيا هو الذى نزداد عطشا كلما نظرنا فى وجهه.. وهذا ما تحسه تماما أمام الكعبة.. انك لا

ترتوى أبدا من النظر أو الطواف.. كلما تأملت هذا القماش الأسود والحجارة القديمة، وسمعت صوت تنفس ابراهيم واسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت، زاد احساسك بالهوى والعطش. هوى المحبين، وعطش العاشقين.

. . . .

. . . .

الذين يعتكفون فى المسجد الحرام يصلون الفروض والنوافل فى أوقاتها.. ويعاينون الكعبة طيلة الوقت، فإذا سجد الإمام وأطال السجود، وأحببت أن تدعو ودعوت، اشتقت أن ترفع رأسك لتعاين الكعبة وأنت ترفع رأسك.

أسراب الحمام هنا تطوف حول الكعبة، لكنه لا يقترب أبدا منها، ولا يحط أبدا عليها، وذلك يثير دهشتك تماما.. كأن هناك حاجزا غير مرئى يحول بينه وبين الوقوف عليها.. عدد الحمام كثير.. أكثر من

نصف مليون حمامة.. تتوالد وتعيش وسط حب وسلام عظيمين.. صيده حرام.. ليس لأى حمام فى الدنيا هذه الميزة.

السماء فوق الكعبة تماما بغير نجوم.. عبثا حاولت البحث عن نجم واحد متألق فلم أر غير الكعبة، بعد ربع ساعة يقومون لصلاة المغرب. لا يقرأ القرآن إلا فى الصلاة.. ليس هناك قارىء يتغنى بآيات الله، ويهتز المصلون حوله، اعجابا بحلاوة الصوت أو جمال الآداء.

ثمة لون من الجدية يميز كل شىء هنا.. ومع الجدية والصفاء والشفافية.. ستقع فى هوى الكعبة.. وستصبح الصلاة قرة عينك.. أى سلطان من سلاطين الأرض يرضى أن يقابل رعاياه مرتين أو ثلاث مرات فى اليوم؟ فكيف برب الكون وهو يقدم اليك فرصة اللقاء خمس مرات كل يوم.. ستمر علينا ليلة القدر فى المسجد الحرام.. ستسبح الكعبة ليلتها فى دموع المصلين أثناء صلاة القيام وصلاة التهجد.. يقيمون

بصلاة التهجد في الثلث الأخير من الليل.. حيث تنزل رحمة الله تعالى إلى السماء الدنيا.

* * *

ـ متى تزور المسجد النبوي؟.. كنت أقول:

لا أريد أن أترك الكعبة.. ثم تذكرت قوله صلى الله عليه وسلم: «من زار المسجد الحرام ولم يزرنى، فقد جفانى حقا».

من الذى يجرؤ على أن يجفوك يا رسول الله.. من الذى يجرؤ..

سنطوف بالكعبة طواف الوداع.. سبع مرات، تدعو فى كل مرة بما تشاء.. خيل الىّ أن جسدى فى جوف حوت يجرى فى ظلمات البحر والليل والخطيئة.. ولم أستطع أن أدعو بغير دعاء ذى النون: **(لا إله إلا أنت.. سبحانك ، انى كنت من الظالمين)..**

هل تعرف بم تحس وأنت تغادر الكعبة.. تصور

أعظم حب عبر حياتك، تذكر لحظات انفصالك عنه.. تذكر احساسك المفتت بالأسى والحزن والضياع.. كنت تشتعل بالنار وداخلك ثلج الفراق الصدىء.. اضرب احساسك هذا فى نفسه ملايين المرات.. هذا تشبيه ساذج لما تحسه وأنت تمضى عن الكعبة ستقول وأنت تمضى عنها: «ان الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد».. لعلك تعود مرة أخرى.. لعلك تعود.

* * *

الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة خمسمائة كيلومتر.. تقطعها أعظم السيارات فى ثمانى ساعات..

اللون الأصفر الفاتح هو اللون الغالب.. أتحداك أن تحدق فى الرمال دقائق بغير أن تخطف صفرتها بصرك.. أى وحشة عميقة تشى بها الرمال.. هناك

جبال قاسية، تصطف وتبدو كوجوه أسطورية ترقد على ظهرها وقد تجمدت.. حتى الهواء هنا بلا صوت.. يجيء لا تعرف من أين، ويمضي لا تعرف إلى أين!! ويمضي بغير صوت.. لو وقفت وسط الصحراء ثلاث دقائق، فسوف تحس بالخوف.. حاول أن تنسى السيارة التي تقف في الطريق المسفلت حاول أن تنسى ترمس المياه المثلجة، وتصور أنك تقف وحدك هنا.

الفكرة تدفع للجنون.. عبثا تعثر على صديق واحد فيما تراه حولك من مشاهد.. أضف إلى تصورك تصور آخر.. انك مطارد.. هناك من يطلب دمك.. بم تحس الآن؟!

كذلك خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من مكة إلى طيبة مهاجرا بدينه ودعوته.. خرج بسببك أنت.. خرج كي يبلغك أنت دعوته.. هذا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ستصلى ركعتين

وأنت تحس بخشوع يختلف عن خشوعك فى الكعبة.. هناك صليت فى مقام أبى الأنبياء ابراهيم.. وتصلى الآن فى مقام آخر المرسلين، وسيد البشر.. هذا قبر نبيك الذى قاسى ما قاساه من أجلك.. والصلاة والسلام عليك يا رسول الله.. أرجو أن تغفر لى جرأتى فى الوقوف ببابك.. وعسى ألا يؤذى مثلك سلام مثلى.. الصلاة والسلام عليك يا رسول الله..

هل تبكى؟..

أتحس أنه مات بالأمس فقط؟..

أتحس أنه لو خرج من نومه فسوف ينكر مرآك بقلة فقهك وفراغ عقلك من العلم وجدب قلبك من الإيمان؟..

أتقول ما قاله الغزالى حين وقف أمام قبره صلى الله عليه وسلم:

يا خير من دفنت فى التراب أعظمه.
فطاب من طيبهن القاع والأكـم

لا تلمس بيدك نحاس الضريح.. لا تقف ويداك وراء ظهرك.. ولا تقف ويداك معقودتان على صدرك.. قف ويداك جوارك.. نكس رأسك..

أتراك تحس أنك تستحق هذا النبى؟.

أتراك تستحق ما فعله من أجلك؟.

أتراك فعلت أنت شيئا لدينه.. غير الصلاة عليه بالشفاه والقلب غارق فى المعصية؟.

هل تريد أن تدعو الله؟.. اعط ظهرك للضريح الكريم، واتجه إلى القبلة.. اتجه إلى الكعبة.. تستطيع الآن أن تدعو.. لا تعرف بأى شىء تدعو.. ماذا لو دعوت أن يغفر الله لك انك مسلم والمسجد الأقصى أسير؟!..

* * * * *

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٠٦/ ١٩٩١

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١